مفهوم الحضارة في الإسلام

د.عبد الحميد غانم

مفهوم الحضارة في الإسلام

٠قبل القراءة

أولاً) مفردة الحضارة في القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية

ثانياً) العلاقة بين الثقافة والحضارة

ثالثاً) شروط الحضارة في الإسلام

رابعاً) معادلة الحضارة في الإسلام

قبل القراءة

ستُعْنى هذه الورقات **بتدبر** الدلالات الشرعية التي تَحُف بمفردة (**الحضارة**) في القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية الثابتة؛ **لتجمع** ما ورد فيها من آيات وأحاديث، **وترتب** معانيها وَفْق ما تحتمل من معانٍ لا تخرج عن طريقة الوحي في البيان، **وتربط** بين تلك المعاني، **وتصوغ** منها مفهوماً شرعياً للحضارة، **وتؤكد** على العلاقة بين الثقافة والحضارة، **وتعتبرهما** النَّسَق الموضوعي الذي يعيشه الفرد في الجماعة وعياً وسعياً، بقدر ما تعيشه الجماعة في الفرد كفالةً وأمناً، وهنا **يكون الوعي بمعارف الوحي** هو **الناظم الموضوعي** لذلك النَّسَق، **والمانع** من أن تتزحزح العلاقة بين الثقافة والحضارة عن مقاصد الوحي وهداياته، **ويكون الوحي** هو **الموروث النقي** للأمة، **ويكون المجهود الجماعي** هو **الناتج الموضوعي** لاتِّباع مَحاب الوحي، **ويكون المنقول النافع** هو ما تتناوَله الأمة من الآخر ما دام يوافق مقاصد الوحي، **ويكون التجديد الصالح** هو القدرة على الجمع بين مُراد الوحي وجديد العصر.

ولذلك تلتقي **شروط حضارة الإسلام** في: **العلم الصحيح، والعمل الصالح**، وما يترتب عليهما من **تأصيل للتوحيد، وترشيد للقوة**، وهي

الشروط ذاتها التي يضمها ناظم موضوعي يجمع بين: **الأمانة والقوة، والإخلاص والثقة، والكفاءة والولاء، والعلم والصدق، والفهم والحفظ، والصدق والعدل، والصبر والبِر، والصواب والحق** من خلال:

١) ثوابت معصومة تضبط المتغيرات، وتعالج النوازل والمستجدات.

٢) وإنسان طائع يعي أمانة الاستخلاف ويسعى بها.

٣) وفكر نقي يصنع وعيه، ويصون سعيه.

٤) وأرض يُوَظِّفها عن دِراية وهداية.

وهنا يصبح الإنسان هو محور المفهوم الحضاري للإسلام؛ مما يقتضي **إعداده، وتوجيهه، وتكليفه، ووقايته، وعلاجه**؛ لأن الحضارة الناجحة هي التي تُعْنى بعمارة الإنسان أولاً، فإنْ تم له ذلك فسوف تتحقق فيه مقومات الحضارة قبل أن تظهر في الحياة من حوله، ويتضح من خلاله الفارق بين **الحضارة الوضعية** التي تعمل لمجرد عمارة الحياة، **وحضارة الإسلام** التي تُعْنَى بعمارة النفوس بالله مع عمارة الحياة، وهي ذاتها دعوة كل نبي من **آدم** عليه السلام إلى **محمد بن عبد الله** ﷺ.

أولاً) مفردة الحضارة في القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية

* توطئة

١) مفردة الحضارة في القرآن الكريم

٢) مفردة الحضارة في السُّنَّة النبوية

توطئة

من محاسن التذكير القول **بأن** استعمال الكلام من صفات المتكلم، **وأن** حَمْل الكلام على معانيه من صفات السامع، وأن وضع الكلام نقياً على معانيه سابق على استعماله وحَمْله معاً.

ولذلك فإن كل مُفردة في لغة العرب هي محايدة في أصل وضعها، **فإذا** استعملها المتكلم أضاف إلى أصل وضعها ما أراده منها، **وإذا** سمعها السامع أضاف إليها ما فهمه منها.

ولاشك أن أي خلل في استعمال الكلام، أو فهمه سوف يجلب إضافات هنا وهناك تؤدي إلى حَمْله على غير معانيه.

الأمر الذي يقتضي **ضبط اللغة العربية وَفْق قوانين الوحي الخاتم، وتَحَرِّي حاجات الاستعمال؛ بحيث يكون الجمع بين أصل الوضع الإلهي، وحاجات الاستعمال البشري مانعاً من مَظان الخلاف، ومزالِق التأويل، وتكلفات المتعمقين، وشبهات أهل الأهواء، وإنْ تنوَّع جديد الاستعمال ودَق.**

والواقع أن مفردة **الحضارة** من أهم المفردات التي طالتها ضرورات

الاستعمال البشري، حتى تفاوتت فيها المقالات؛ بحسب حال الناظر إليها، كما ترددت في الوضع الإلهي **قرآناً وسُنَّة**؛ مما يقتضي دَرْسها في معارف الوحي؛ للوقوف على صور استعمالها، وذلك على النحو التالي:

١) مفردة الحضارة في القرآن الكريم

وردت مادة (حَضَر) في القرآن الكريم خمساً وعشرين مرة؛ لتدل على المكان والمَكِين (الإنسان) (١) وما يترتب على تفاعلهما من آثار، وجاءت على تسعة معانٍ تناولت:

١) الحضور المقترن بالمشاهدة ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ ﴾البقرة ١٣٣ (٢)

٢)الحضور المقترن بالعِلم التام﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾ التكوير ١٤.

٣) الحضور المقترن بالسماع التام ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ﴾الأحقاف ٢٩.

٤) الحضور المقترن بلازِمه (أي الشيء المحضور) ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ القمر ٢٨.

٥) ذات الحضور ﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ المؤمنون ٩٨ (٣)

---

(١) ألفاظ القرآن الراغب ١٢١، القاموس المحيط الفيروزآبادي ٤٨١

(٢) وانظر: البقرة ١٨٠، النساء ٨ و١٨، المائدة ١٠٦ (٣) وانظر: البقرة ٢٨٢

٦) تمام الإحضار ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾مريم ٦٨.

٧) الإقامة والسُّكْنى والتَّوَطُّن ﴿ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ البقرة ١٩٦.

٨) المجاورة المكانية ﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ﴾ الأعراف ١٦٣و ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾الروم ١٦، و﴿ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ سبأ ٣٨ .

٩) تدوين الأقوال والأعمال ليوم الحساب ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾آل عمران ٣٠، و ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ الكهف ٤٩ (١)

---

(١) وانظر: النساء ١٢٨، القصص ٦١، يس ٢٢ و٥٣ و٧٥، الصافات ٥٧ و١٢٧ و١٥٨، نزهة الأعين النَّواظِر ابن الجَوْزي ١/ ٢٦٣-٢٦٥

٢) مفردة الحضارة في السُّنَّة النبوية

جاءت مفردة (**الحضارة**) في **السُّنة النبوية** على ثمان معانٍ تناولت:

١) **الحضور**؛ فقد صح أن جماعة من الصحابة قالوا " يا رسول الله أوَلا تأكل ؟ " فقال ﷺ " **إني تَحْضُرُني من الله حاضرة** " (١)

٢) **المشاهدة والحضور**، قال النبي ﷺ " **الصلاة مشهودة محضورة** " (٢) أي صلاة الصبح، وقال ﷺ " **أيكم خاف أن لا يقوم من آخر الليل فليُوتر، ثم ليرقد، ومَنْ وثق بقيامٍ من الليل فليوتر من آخره؛ فإن قراءة آخر الليل محضورة، وذلك أفضل** " (٣)

٣) **المشاهدة** العينية، **أو** المكانية، قال النبي ﷺ " **إذا حضرتم الميت فقولوا خيرا** " (٤)

٤) **المكان**، قال النبي ﷺ " **الهجرة هجرتان هجرة الحاضر، وهجرة البادي، أما البادي فيجيب إذا دُعِي، ويطيع إذا أُمِر، وأما الحاضر فهو أعظمها بَلِيَّة، وأعظمها أجرا** " (٥)

---

(١) الموطأ مالك ١٧٣٧ (٢) صحيح مسلم ٨٣٢ (٣) صحيح مسلم ٧٥٥
(٤) صحيح ابن حِبَّان ٣٠٠٥ (٥) صحيح ابن حبان ٥١٧٦

٥) التزامن بين حظوظ الدنيا، وواجبات الآخرة، قال النبي ﷺ **" إذا حضر العَشاء، وأُقيمت الصلاة، فابدؤوا بالعَشاء "** (١)

٦) التمام البالغ حد الاستيفاء، قال النبي ﷺ **" إن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي "** (٢)

٧) الدلالة على مكان السُّكْنَى؛ فقد **احتجم النبي ﷺ وهو صائم في سفر، لا في حضر** (٣)

٨) وتأتي الحضارة في **مقابل الإقامة في البادية،** وما يلحق تلك الإقامة من مناشِط وتَنَوُّع، قال النبي ﷺ **" ولا يبيع حاضرٌ لِبادٍ "** (٤)

وهكذا تنوعت معاني الحضارة في معارف الوحي؛ لتطول آثار الإنسان في المكان، وآثار المكان في الإنسان، وما يترتب على تلك الآثار من مناشِط إيجابية، أو سلبية، وما ينجم عن تلك المناشط من نتائج في الدنيا، ومآلات في الآخرة.

---

(١) صحيح مسلم ٥٥٧ (٢) صحيح البخاري ٣٤٢٦

(٣) صحيح ابن خُزَيْمَة ١٩٦٥

(٤) صحيح البخاري ٢٠٥٠و٢٠٥٢و٢١٥٤

وكأن الحضارة قصة إنجاز طويل تحكي لنا كيف كانت الحياة تدور هنا، وتجري هناك، ولماذا كانت هكذا، وكيف كان يجب أن تكون، وهل من دروس وعِبَر يمكن أن يفهمها اللاحق من السابق، وكيف يَصِح ذلك الفهم، وتدوم آثاره.

ثانياً) العلاقة بين الثقافة والحضارة

تأتي **الثقافة** في لغة العرب على معنى العقل والوعي والإدراك والذكاء والفهم والفِطنة، ويُقال **الثَّقِفُ** للفاهم الضابط القادر على الالتقاط السريع، والتعلُّم الجيد، والتفكير الصحيح.

وتأتي الثقافة في الأفعال على معنى تقويم المُعْوَج من الأشياء، ومنها: **الثَّقَّافَة** آلة تُسَوَّى بها الرماح؛ لتصيب أهدافها.

وتأتي الثقافة في السلوك على معنى التربية والتعليم والتهذيب، وتدل على الإتقان في: الإدراك والاعتقاد والقول والعمل (١)

وأما في معارف الوحي، فتأتي الثقافة على معني **الغَلَبَة**، قال تعالى ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ ﴾ الأنفال ٥٧ (٢) كما

---

(١) غريب الحديث ابن قتيبة ٢/ ١٠٩، ألفاظ القرآن الراغب ٧٦،
الفائق الزَّمَخْشَرِي ٣/ ٣٢٥، لسان العرب ابن منظور ٩/ ١٩-٢٠،
القاموس المحيط الفيروزآبادي ١٠٢٧،
لمحات في الثقافة الإسلامية عمر الخطيب ٢٢وبعدها

(٢) وانظر: البقرة ١٩١، النساء ٩١، تفسير الشَّنْقِيطي ٨/ ٨٣

تأتي بمعنى **التأثير في المكان**، مما يجعل بينها وبين الحضارة **نِسبة إيجاب**، قال تعالى ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ ﴾ آل عمران ١١٢ (١)

وهنا تصبح **الثقافة في الإسلام منهاجاً من التربية يُعْنَى بتنقية الفطرة، وتصفية الروح، وتجلية النفس، وبعث مَلَكات العقل، وتصحيح وظائف البدن**، وترشيد تصوُّر الإنسان عن ربه، وعن نفسه، والحياة من حوله؛ ليرقى بحِسِّه إلى رُتَب الحكم الصائب على الأشياء (٢)

وهكذا يرتفع الإسلام بالثقافة عن مجرد حبسها في معنى التَّمَرُّس على الفعل، **أو** التفنُّن في الأداء (٣) **أو** حصرها في سُبُل ترقية الحس والذوق، **أو** إطلاقها على منظومة التراث الفكري والعَقَدي والوجداني. وما يترتب على هذه المنظومة من صور التقدم العقلي، ومظاهر الحياة المعنوية والعملية في مجتمعٍ بعينه، وإنما يجعلها نَسَقاً جامعاً يحياه الفرد في الجماعة وعياً وسعياً، وتحياه الجماعة في الفرد كَفالةً وأمْنـاً؛ بحيث تكون

---

(١) وانظر: الأحزاب ٦١

(٢) المعجم الفلسفي د.جميل صليبا ١/ ٤٨٩و٧٢٣و٧٤٠-٧٤١،
دراسات في الإسلام د.حسين مُرُوَّه ٤٧وبعدها،
تكوين العقل العربي د.محمد عابد الجابري ١٨وبعدها،
التراث والمعاصرة د.أكرم العمري ١١٠ (٣) مقدمة ابن خلدون ٢٣٢

معارف الوحي هي **الناظم الموضوعي** لذلك النَّسَق، والمعيار لَمَعِينه، وتكون آثاره هي **الناتج الموضوعي** للقيم والأفكار والأفعال التي تُزاوِج بين الموروث النقي (**الوحي**)، والمجهود الجماعي، والمنقول النافع عن الآخر، وهي ذاتها الثمرات المرجُوَّة من تفاعل **التراث والمعاصرة**؛ لصناعة الحضارة وصيانتها علي عين الوحي (١) لتسمو عن أن تكون مجرد جُملة لمظاهر الآداب والفنون والمعارف والعلوم، وما قد يتصل بها من تفاعلات اجتماعية، وآثار مادية، ونُظُم سياسية، وقِيَم روحية، ومعايير أخلاقية نِسْبية (٢)

---

(١) أرجو مراجعة: المعجم الفلسفي ١/ ٣٧٩و٤٧٧،
لمحات في الثقافة الإسلامية عمر الخطيب ٣وبعدها،
تجديد الفكر الإسلامي د.محسن عبد الحميد ١٤٥وبعدها،
في معركة الحضارة د.قسطنطين زريق ٣٣وبعدها،
دراسات في الثقافة الإسلامية د.رجب سعيد شهوان ورفاقه ٨،
التربية المعاصرة د.محمود شفيق ورفاقه ٣٩،
ثقافة المسلم في وجه التيارات المعاصرة د.عبد الحليم عويس ١٦،
علم الاجتماع ومدارسه د.مصطفى الخشاب ١٨٩

(٢) المعجم الفلسفي ١/ ٤٧٦

ثالثاً) شروط الحضارة في الإسلام

تقوم الحضارة في الإسلام على **سبعة شروط** هي: **التوحيد الخالص، والعلم الصحيح، والقول الصادق، والعمل الصالح، والقوة الرشيدة،** ولن يتم شيء من ذلك بغير **الإتقان، والأمانة.**

ولا شك أن إتقان هذه الشروط وعياً وسعياً سوف يحقق عناصر الحضارة الكاملة التي تجمع: **الإخلاص** إلى **الثقة، والكفاءة** إلى **الولاء، والفهم** إلى **الحفظ، والصدق** إلى **العدل، والصواب** إلى **الحق، والصبر** إلى **البر، والإتقان** إلى **الامتثال.**

كما أن إتقان هذه الشروط والعناصر سوف يُؤَصِّل لنظرية **استخراج القوة** التي تُعْنَى بصناعة الإنسان قبل صناعة دوره، وتُرتِّب لتأهيل العامل قبل توصيف العمل؛ **لأن** التأهيل قبل التوظيف ضرورة شرعية وعقلية وعملية، **ولأن** القيمة في نظام الإسلام صانعة للموقع.

ولما كانت قواطع العقل تدل على **أن** القيمة بلا موقع إهدارٌ للإنسان والحياة، **وأن** الموقع بلا قيمة إفسادٌ للإنسان والحياة؛ فقد حذر النبي ﷺ من تولية مَنْ ليس أهلاً للأمانة، فقال ﷺ **" إذا وُسِّدَ الأمر إلى غير أهله**

فانتظر الساعة " (١) فعَدَّ ﷺ تولية غير الكفء علامة على نهاية الحياة.

ومن هنا فإن حضارة الإسلام بحاجة إلى: **إنسان** مُقْبِل على تَحَمُّل أمانة الخلافة، **وفِكْر** نقي يصنع وعيه ويصون سعيه، **وأرض** يوظِّفها عن دراية وهداية،**وثوابت** تضبط المتغيرات وتعالج النوازل وتستشرف قابِل الحياة؛ ولذلك تقوم هذه العناصر على **ست قواعد**، هي:

١) العدل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ ﴾ النحل ٩٠.

٢) والعلم ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴾ طه ١١٤.

٣) والعمل ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ التوبة ١٠٥.

٤) والشورى ﴿ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴾ آل عمران ١٥٩.

٥) والجهاد ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ الحج ٧٨.

---

(١) صحيح البخاري ٥٩

٦) **والتكافل ﴿ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴾ الذاريات ١٩** (١) ونحو ذلك مما يحقق البِر القائم على الأصول الناظمة لحضارة الإسلام.

ولأن الإنسان هو محور المفهوم الحضاري للإسلام فقد جمع الإسلام بين حَرَم الوحي الصحيح، واجتهاد العقل الصريح على شرط ألَّا يَسْرَح العقل إلا في رعاية الوحي؛ لأن الوحي نور فوق العقل، كما جمع **بين النفس والفطرة، والطموح والقدرة، والبدن والروح، والدافع والواقع، والعقل والقلب** جمعاً يحقق معنى التآلف بين جلال الغاية وشرف الوسيلة، ويقدَّم نوعاً جديداً من الإنسان.

وهكذا صارت حضارة الإسلام مجموعة في الإنسان، وتحولت خصائصها ومقوماتها وشروطها إلى وسائل شريفة؛ لتحقيق معنى ذلك الإنسان، فعَدَّه الإسلام كليّة حضاريةً، وراعى شروط فطرته، ووجَّه أشواق عاطفته، ولَبَّى حاجة بدنه، وهَذَّب نداء غرائزه، فزكَّى روحه، ورَشَّد جسده، وحقق فيه معنى الوسطية

وإذا كانت الحضارة الوضعية قد وافقت الإسلام في الوسائل، فقد خالفته في المقاصد، ففقدت روح الحضارة، وحازت جسمها، وبلغت

---

(١) **وانظر: المعارج ٢٤-٢٥**

المدى في استهلاك الحياة دون رعايتها، فلم تفلح في صيانة الإنسان الذي وصفه **أبو علي بن سينا ٤٢٨هـ** بمنظومة متآلفة من القيم الفاعلة صناعةً وصيانة، فقال " **أفضل الحركات الصلاة، وأمثل السَّكَنات الصيام، وأنفع البِر الصدقة، وأزْكَى السَّيْر الاحتمال، وأبْطَل السعي الرياء، ولن تَخْلُص النفس عن الدون ما التفتت إلى قيل وقال وجدال، وخير العمل ما صدر عن خالص نِيَّة، وخير النيِّة ما انفرج عن جناب علم، والحكمة أم الفضائل، ومعرفة الله أول الأوائل** " (١)

---

(١) سِيَر أعلام النبلاء الذهبي ١٧/ ٥٣٥، الأوْلَى أن يُقول " أول الأوائل هو شهادة التوحيد لأنها أول واجب على المكلف، وأول دعوة الأنبياء ، وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله، وليس كما يقول أهل الكلام: إن أول واجب هو النظر أو القصد إلى النظر، أو الشك ". أرجو مراجعة:
النصيحة الولدية الباجي ١/ ٣٩، التمهيد ابن عبد البر ١٨/ ٨٦،
تفسير القرطبي ٧/ ٣٣١-٣٣٢، فتح الباري ابن حجر ١٣/ ٣٤٩وبعدها،
شرح العقيدة الطحاوية ٧٧-٧٨، دعوة التوحيد محمد هرّاس ١٧وبعدها

رابعاً) معادلة الحضارة في الإسلام

الحضارة في الإسلام معمار متوازن تدل عليه **متلازمة عَقَدِيَّة عملية**، تهدي الإنسان إلى خير الطرق؛ لصناعة الحياة من خلال اجتماع **ثلاث قواعد** هي: **التوحيد الخالص، والقول الصحيح، والعمل الصالح**.

فإذا لزم الإنسان ذلك المعمار انتظم له صلاح الدنيا وفلاح الآخرة، المجموع في قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ الكهف ١١٠.

ولا تصح تلك العمارة الحضارية إلا **بثلاثة شروط**، هي: **الارتقاء** بالإنسان مادةً ومعنى، **والالتقاء** بحقائق الحياة علماً وعملا، **والجمع** بينها على نَسَقٍ فريد يهدي إلى صياغة البِر وَفْق خطاب الوحي؛ بما يحقق مرادات الله في الحياة بقدر الطاقة.

فإن حدث ذلك الجمع، فسوف **يفهم** الإنسان مبتدأه ونفسه وقيمته وموقعه ودوره ومُسْتَقَرِّه، **ويتهيأ** لتسلُّم الحياة على صلاح، وصناعتها وصيانتها كما أمر الله، بقدر ما يتهيأ للفلاح في المآل.

ولأن هذه المقاصد هي الغاية المقدسة من خلق الإنسان نزل قول الله ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾الأحزاب٧٢؛ ليعرف الإنسان قيمة دوره، وجلال واجبه، وأنه أهل لهما إنْ أراد ذلك.

ولذلك كان الإشفاق من تكاليف الأمانة هو دافع الجماد على التأبِّي عن حملها، وهو ما دلَّت عليه (**الواو التفسيرية**) في قوله ﴿ **وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا** ﴾ وجاء التزام الإنسان بشروط الأمانة منجاةً له من الجهل والظلم، وانتقالاً به إلى العلم والعدل، فكان المقصود بقوله ﴿ **ظَلُومًا** ﴾ أنه علم ولم يعمل، والمقصود بقوله ﴿ **جَهُولًا** ﴾ رضاه بما هو عليه من عصيان وجاهلية،والمقصود بقوله ﴿ **ٱلْأَمَانَةَ** ﴾ تَحَوُّلُه من الحالة الدنيا إلى الحالة العليا بأداء التكاليف الشرعية على وجهها الذي يريده الله (١)

---

(١) تفسير الطبري ٢٢/ ٥٣ وبعدها، تفسير الزمخشري ١/ ١٦٣،
تفسير ابن الجوزي ٦/ ٤٢٧- ٤٢٩، تفسير أبي حيّان ٧/ ٢٥٣،
تفسير القرطبي ١٤/ ٢٥٤وبعدها، تفسير ابن كثير ٣/ ٥٣٠،
صحيح مسلم بشرح النووي ٢/ ١٦٨، فتح الباري ٥/ ٥٥،
تفسير السعدي ١/ ٦٧٣، حتى يغيروا ما بأنفسهم جودت سعيد ٥٧

ولا تتم معادلة الحضارة في المفهوم الحضاري للإسلام إلا:

١) بالقوة ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾الأنفال٦٠؛ لتتصل قوة المعنى بقوة المبنى.

٢) والحفظ ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ يوسف ٥٥؛ ليصير الحفظ من مقاصد الأمانة، ويصبح العلم ضمانة للعمل، ويبقى العمل طائعاً للعلم.

٣) والأمانة ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾القصص ٢٦؛ لتصح القوة بالأمانة.

ولذلك شكا **عمر بن الخطاب** من جَلَد الفاجر [**قوة غير الأمين**]، وعجز الثقة [**ضعف الأمين**] (١) ولما سمع بعض الصحابة يتمَنَّوْن قال " **أمّا أنا فأتمنى أن يكون لي مِلء هذا البيت من أمثال: أبي عبيدة عامر بن الجراح، وأبي ذر الغفاري، وحذيفة بن اليمان، ومعاذ بن جبل؛ فأستعملهم في طاعة الله** " (٢)

---

(١) مجموع الفتاوى ابن تيمية ٢٨/ ٦٨ (٢) التاريخ الأوسط البخاري ١/ ٥٤

٤) والفهم التام ﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ص ٤٥.

٥) والتقوى ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ ﴾ التغابن ١٦، وقال النبي ﷺ " **فإذا نهيتكم عن شيءٍ فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمرٍ فأتوا منه ما استطعتم** " (٢)

٦) والصدق ﴿ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗا ﴾الأنعام ١١٥، وقال النبيﷺ " **إن الصدق يهدي إلى البِر، وإن البِر يهدي إلى الجنة** " (٣)

ذلك أن **القوة والفهم** إذا اجتمعا مع **الأمانة والحفظ** صنعوا **التقوى والصدق**، وحققوا **الكفاءة والولاء**، ووصلوا **العلم** بمعارف الوحي **مع العمل** بتكاليفه، فارتفعوا بالإنسان من مُواضَعات الأرض إلى شروط السماء على معيار **الإتقان والإخلاص**، وهنا يتم **الصواب**.

وسر ذلك أن **الإخلاص** شقيق الأمانة، **والصبر** لازم لها، **والصواب**

---

(٢) صحيح البخاري ٦٨٥٨

(٣) صحيح البخاري ٥٧٤٣، وانظر في آثار الكذب والإفك والإثم: الشعراء ٦٦، العلق ١٣-١٩

شقيق **الحق** وتابع للأمانة ومحفوظ بالأخلاق وحافظ للعلم، **والصدق** شقيق **العدل** وعنوان الأمانة، **والأمانة** حاكمة على القوة، **والقوة** تتنوع؛ بحسب الولاية، فالحرب تلزمها فضيلة الشجاعة، والسياسة يلزمها العدل وهو أبو الفضائل.

ولما كان اجتماع **القوة والأمانة** في الناس قليلاً؛ فقد لزم تولية الأمثل فالأمثل، وهذه هي سُنَّة النبي ﷺ في إسناد الأمور إلى أهلها، فما إنْ تزحزح ذلك الوعي تخلَّف السعي، وهَبَّت ريح الأفول ولا تزال (١)

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) السياسة الشرعية ابن تيمية ١٤وبعدها، تفسير ابن كثير ٢/ ٤٩٩، ٣/ ٣٩٦، تفسير ابن الجوزي ٤/ ٢٤٣-٢٤٥، ٦/ ٢١٥، موسوعة الأعمال الكاملة ابن القيم ٢/ ١٥٥و٢٠٠

د.عبد الحميد محمود غانم
Agh_1952@yahoo.com
Ghanem1952@gmail.com